الأصول السفسطائية والسقراطية لنظرية القياس عند أرسطو

بن معمر خير الدين

ذاع صيت المدرسة السفسطائية الرّائدة للنزعة الإنسانية باسم بروتاغوراس Protagoras*، الشّخص الذي لم يفد إلى أثينا إلاّ بعد نهاية تجواله بمدن إيطاليا الجنوبية وبلاد اليونان يُسمِع الجماهير خطبه البليغة. غير أنّ مكوثه بها لم يدم طويلا بسبب اضطهاده واتّهامه بالإلحاد، على إثر نشره لكتاب سمّاه «الحقيقة» مسّ بمقام الآلهة، قال فيه: «لا أستطيع أن أعرف ما إن كان الآلهة موجودين أم غير موجودين، فإنّ أمورا كثيرة تحول بيني وبين هذا العلم، أخصّها غموض المسألة وقصر الحياة «. حُرقت كتبه، حُكم عليه بالإعدام ومات غرقا في البحر أثناء فراره. لقد كان أقوى الشّخصيات السفسطائية، وأكثرها تأثيرا على الجمهور اليوناني، غير أنّ هذا التأثير لم ينل من فئة المثقّفين والعلماء بالقدر الذي فعله في الشّعراء والسّياسيين وعامة الشّعب. لقد «هزّ القاعدة الشّعبية بعنف، وأثارها على سقراط وأتباعه، ممّا أدى بسقراط إلى النتيجة المحزنة» . وقد وردت إلينا من كتابه أيضا عبارته الشهيرة وأكبر قوله: «الإنسان مقياس الأشياء جميعا؛ هو مقياس وجود ما يوجد منها، ومقياس لا وجود ما لا يوجد». هذا دليل على منعطف كبير في مسار الفلسفة اليونانية: فبعدما كان الفلاسفة الطبيعيون مهتمّون من قبْل بموضوع خارجي، ويتكلّمون عن وجود مادي وعالم مستقلّ عن الذّات، لاعن موضوع ماثل أمام الشّعور أو عن عقل يدرك هذا الموضوع، نجد بروتاغوراس بقوله هذا يشقّ الطّريق أمام مشكلة المعرفة والخوض في مسائلها. وثمّة مسألة مهمّة أخرى يعود الفضل إلى بروتاغوراس وأتباعه في إثارتها، هي النّظر في الحقائق المعنوية: فبينما ألزم فلاسفة الطّبيعة السّابقون أنفسهم بحدود العالم الحسّي، نجد السفسطائيين يلفتون الاهتمام إلى المشكلات المعنوية، كالخير والشّر والفضيلة والعدل والجمال والقبح. لكنّ ذلك لم يمنع بروتاغوراس من الإلمام ببعض علوم عصره، فقد قيل أنّه كان واضع علم النّحو اليوناني، وأنّه كان صاحب مدرسة خاصة بتعليم الهندسة، غير أنّه لم يكن يرى في تلك العلوم سوى صورا مجرّدة، لا صلة لها بالواقع.

لكنّ، ماذا كان يقصد بروتاغوراس بكلمة «إنسان» في قوله؟ أهو الإنسان النّوع، أم الإنسان الفرد؟ إنّ الجواب على هذا السّؤال محلّ خلاف آخر بين المؤرّخين، إذ القصد من الكلمة في رأي فريق منهم الإنسان النّوع، ممّا يترتّب عنه القول أنّ الحقيقة واحدة لدى جميع البشر، لكنّها من وضع عقولهم، ليس لها وجود حقيقي مستقل عن تصوّرهم في العالم الخارجي *. أمّا الفريق الثاني، فيعتقد أنّ مدلول الكلمة ليس الإنسان النّوع وإنّما الإنسان الشّخص، ممّا يلزم عنه أنّ الحقيقة متعدّدة، تختلف باختلاف أفراد النّوع البشري، وهذا هو المعنى الذي يعطيه أفلاطون للكلمة عند شرحه لكلّ العبارة: فبعد محاورته لتتياتوس Théétète* حول معنى العلم، يصل سقراط إلى أنّ بروتاغوراس كان يقصد أنّ الأشياء هي»بالنّسبة إليّ كما تبدو لي، وهي بالنّسبة إليك كما تبدو لك، وأنت إنسان وأنا إنسان. أليس يحدث أحيانا-ونحن عرضة لهواء بعينه، أنّ الواحد منّا يبرد، بينما لا يحسّ الآخر بشيء؟ فما عسى أن يكون الهواء في ذاته،

بارد أم غير بارد؟ أو أنّنا نصدّق بروتاغوراس، ونقول أنّه بارد بالنّسبة للذي يبرد منه، وغير بارد بالنّسبة للذي لا يبرد؟ «[2]

يقوم العلم إذن على الإحساس، ممّا يفرض القول أنّه لا يوجد شيء في ذاته، مستقلّ عن الفرد، يمكن أن يُسمى ويوصَف على وجه التحديد والنّهاية، فكلّ موجود إنّما يوجد على النّحو الذي يتصوّره الأنا. وعندما كان يُطلب من بروتاغوراس تعليل اتّفاق جميع النّاس حول الحقائق الهندسية، كان ردّه أنّ تلك الخطوط والدّوائر و المضلّعات، لا وجود لها في الواقع الحسّي. هكذا تنتفي الحقيقة المطلقة، لتقوم مقامها حقائق تتعدّد بتعدّد الأفراد، وتتغيّر بتغيّر انفعالات الشّخص الواحد. والمشكلة أنّ ما يصدق على العلم، يصدق على العمل أيضا: فالفرد الواحد هو مقياس النّافع والضّار، الخير والشّر، العدل والظّلم. لكنّ ليس المقصود بهذا أنّ المجتمعات البشرية أشكال من الفوضى، وبالتّالي غياب الحكمة والقانون*؛ إنّ القانون يقوم على تعاقد الأفراد، ومعيار صحّته المجتمع الذي يُطبّق فيه، لأنّه من وضع أذكياءهم، ويلزم عن هذا القول أنّ ما هو عدل لدى مجتمع بعينه، قد يكون ظلما لدى مجتمع آخر. يبدو أنّه لا مجال للحديث عن فكرة سياسية* صادقة وأخرى كاذبة ما دام ليس هناك معيار مطلق لأيّ قيمة-بل يجوز الحديث عن سياسة أكثر نفعا من غيرها، وعلى هذا النّحو «يصبح من الصّواب أن نقول أنّ بعض النّاس أكثر حكمة من غيرهم، وأنّه لا أحد يفكّر تفكيرا كاذبا تماما».

ننتقل بعد هذا إلى غرغياس *Gorgiasالرّجل الثاني في الجماعة السفسطائية؛ قدم إلى أثينا كسفير لمدينة ليونتيني Leontini عام 427، فيما يُروى، من أجل طلب المساعدة ضدّ سيراقوصة Syracuse فبهر عقول الأَثينيين ببلاغته، مما جعل أفلاطون لا يخفي إعجابه به في الحوار الموسوم باسمه(غورغياس)، لمقدرته على الجواب على أيّ سؤال يُلقى عليه. ويقال أنّه كان تلميذا في بداية حياته لأنبادوقليس، ممّا حمله على الانشغال بمسائل العلم الطّبيعي، ويكون قد وضع كتابا في «البصريات»، لكنّه تحت تأثير جدل المدرسة الإيلية، زاوله الشكّ في قضايا العلم الأيوني، بل وفي الوجود بأكمله، فقاطع الفلسفة الطّبيعية بوضعه كتاب عنوانه «في اللاوجود» أو «في الطّبيعة»، تضمّن ثلاثة قضايا رئيسية، هي الأساس الذي قامت عليه فلسفته: ١-»لا يوجد شيء على الإطلاق» لأنّه إذا وُجد شيء، فإما أن يكون وجوده أزلي أم ظهر إلى الوجود. لكنّه لا يمكن أن يكون حادثا، أي ظهر إلى الوجود، لا من وجود مثله ولا من لاوجود. ولا يمكن أن يكون أزليا، إذ لو كان كذلك، لابد أن يكون لا متناهيا. لكنّ اللامتناهي مستحيل، لأنّه لا يمكن أن يحتلّ مكانا ولا يمكن أن يوجد في ذاته، ومن ثمّة فهو لا يمكن أن يوجد في أيّ مكان، وما لا يوجد في أيّ مكان هو عدم. ٢-»إذا ما كان هناك شيء، فمن غير الممكن أن نعرفه»؛ وهذا موقف لازم عن عقيدة السفسطائيين في قيام العلم على الحواس التي تختلف بين الأشخاص، بل عند الشّخص الواحد بين الظرف والآخر، فلا يمكن الفصل في حقيقة الشيء كما هو، مادام ليس هناك رابطة ضرورية بين العلم والمعلوم. ٣-»حتى إذا ما كانت هناك معرفة بالوجود، لا يمكن نقلها للآخرين»؛ والحجّة أنّ أداة التواصل بين النّاس اللّغةُ، غير أنّ حدود اللّغة رموز وضعية ودلالات اصطلح الأفراد حولها، لا يمكن أن تجمعها بالمدلولات إلاّ روابط تحكيمية، لأنّ «أيّ إشارة تختلف عن الشّيء المشار إليه: فمثلا كيف يمكن أن تُنقَل المعرفة بالألوان عن طريق الكلمة، طالما أنّ الأذن تسمع النغمات وليس الألوان؟ وكيف أنّ نفس التمثّل للوجود موجود عند شخصين في وقت واحد، طالما أنّهما مختلفان الواحد منهما عن الآخر»

*. هكذا يبدو أنّه في الحين الذي انتهى جدل بروتاغوراس به إلى أنّ كلّ شيء حقّ، ولا أحد على خطأ، نجد غرغياس ينتهي به جدله إلى أنّ كلّ شيء خطأ ولا أحد على صواب.

إنّه لزلزال أوشك العقل اليوناني أن ينهار تحت عنف هزّاته؛ فالانقلاب الذي ثار به السفسطائيون على التقاليد الدّينية والسّياسية والعلمية، كان ضربة لقواعد التفكير المنطقي قبل كلّ شيء: لقد تبنوا موقفا نسبيا، فأنكروا إمكانية معرفة العالم الخارجي؛ وهم في اتّخاذهم من النّزعة النّسبية أساسا للأخلاق والمعرفة أنكروا إمكانية العلم الموضوعي؛ ونزعة الشّك عندهم انعكاس لأثر هيراقليطس وبارمنيدس، وقد «أدّى بهم الابتداء من نظرية هيراقليطس في الحركة الشّاملة إلى القول أنّه لا وجود لرأي خاطئ، وأنّ كلّ موضوع يمكن أن توجد حوله في الواقع تعبيرات متضادة في الحقيقة وجميعها أحكام صحيحة بالقدر نفسه، وهم بذلك يستبعدون التناقض*حتّى كإمكان»

. وقد ساروا بالأسلوب نفسه على مبدأ بارمنيدس، فاستنتجوا أنّ الواحد لا يمكن أن يكون كثيرا، وأنّ موضوع المعرفة مستحيل أنّ تكون لديه صفات جوهرية. وتبعا لذلك لا يمكن لموضوع الحكم أن يحمل أيّ صفة، بل ذهبوا إلى حدّ رفع كلّ شكل منطقي عن الحكم. وبتوجيه من نزعتهم النّسبية والجدلية كذلك، وصلوا إلى أنّ تصوّر كلّ شخص-علاوة على صحّته- لا يمكن أن يُستنبط من تصوّر شخص آخر، لأنّ التصوّرات لا يمكن أن تقوم بينها أيّة صلة، أي عدم إمكانية وجود الحكم المنطقي.

كانت فكرة بروتاغوراس في كون الإنسان مقياس كلّ ما هو موجود، والتي مفادها أنّ لكلّ فرد في بُرهة معطاة حقيقة خاصة، أصل نزعة السفسطائيين النّسبية ونظريتهم في المعرفة؛ غير أنّ اعتناق أتباع بروتاغوراس لهذه النّسبية وصل بهم إلى الحرّية المطلقة في الرّأي الشّخصي، آلت عندها السفسطة إلى التدهور لتصبح صناعة في البرهان على أيّ شيء، أو على لاشيء، وفي نصرة الرّأي أيّا كان أو إبطاله. لقد انحرفوا بالجدل Dialectique * فجعلوا منه فنّا للتّمويه والاحتيال على المعاني، فأصبح ضربا من الكوميديا اللفظية. هذه الوجهة انتهت بالسّفسطائيـة إلى الانحطاط على أكثر من صعيد: فعلى المستوى»الأنطلوجي لا يهتمّ السفسطائي بالوجود، لكنّه يختفي داخل اللاوجود والعَرَض؛ وبالنّسبة إلى المنطق لا يبحث عن الحقيقة، ولا عن الصّرامة الجدلية، وإنّما الرّأي فحسب؛ الانسجام الظاهري؛ الإقناع والانتصار في المنازلة الكلامية؛ أمّا في الأخلاق التربوية والسياسية لا تعنيه الحكمة والفضيلة، لا بالنّسبة للفرد ولا المدينة، وإنّما يصبو إلى المال والسّلطة الشّخصية «.

إنّ الوجه المنطقي لأطروحة بروتاغوراس وغرغياس في استحالة الخطأ-والتي مبرّرها أنّ «أيّ قول هو قول شيء، فهو إذن قول ما هو موجود»، ظاهر على صعيد نظريتهم في المعرفة وفنّ الخطابة(الجدل) عندهم كما أشرنا سالفا: لقد عطّل السفسطائيون كلّ تفكير منطقي يقوم على قواعد مع مبدأ «الفرد مقياس ما هو موجود»، ومادام المفهوم الذي يمْثُل في ذهن الشّخص الواحد عن الواقع يختلف عن المعنى الذي يقوم في ذهن شخص آخر، فهذا يعني انعدام الصّفة الأساسية الثّابتة للموجود، أي انعدام التّعريف، ومن ثمّة عدم إمكانية حصول التصوّر أو المقولة، فعل العقل الأوّل والأساسي. وبانعدام المقولة يستحيل حمل صفة(ب)على موصوف(أ)، أي استحالة الحكم، فعل العقل الثاني. ولمّا كانت الحقيقة ذاتيةً، يصبح من غير الممكن أن تَصدُر معرفة عن معرفة أخرى، وبالتالي يستحيل الاستدلال بما فيه القياس، الحكم

بواسطة، وهو فعل العقل الثالث. أمّا القياس بالذّات، يصحّ القول أنّ السفسطائيين لعبوا الدّور المباشر الأوّل * في إبداعه، من حيث أنّها أثارت ردّ فعل أرسطو ضدّ الجدل المموّه éristique؛ « فقد بدأ كمنهج جدلي، قبل أنّ يتفطّن أرسطو إلى الدّور الذي يمكن أن يلعبه على صورته البرهانية في تشكيل العلم» . لقد نشأ من الحاجة إلى ضبط قواعد الحوار، من أجل تفادي الغلط وإدراك المغالطات *في الحجاج الجدلي.

كان للجدل من الأهمّية في الاستدلال ما حمل أرسطو على أن يخصّه بأحد كتب «الأرغانون» وهو كتاب «الجدل» أو «المواضع»

*Topiques؛ وقد عرّفه بأنّه الاستدلال بالإثبات أو النّفي في مسألة واحدة، مع احتراز الوقوع في التناقض، والدّفاع عن النتيجة الموجبة أو السالبة. غير أنّه استدلال لا يمكن انطلاقا من أشياء ثبتت حقيقتها، لأنّ المقدّمات الصادقة لا تثير تعارض الأحكام؛ إنّ الجدل لا ينطلق إلاّ من مقدّمات محتملة، لذلك يتفق القياس الجدلي مع البرهاني في أنّه استدلال صحيح، ويتميّز عنه في كون مقدّماته ظنيّة؛ ولا يتّفق مع السفسطائي في شيء، لأنّ هذا ينطلق من مقدّمات كاذبة، وقد يكون الاستدلال فيه صحيحا أو فاسدا. وقد خصّ أرسطو بالقياس السفسطائي كتاب «الأغاليط» الذي يتناول بالخصوص الحجج الضعيفة المستعملة في البراهين السفسطائية، ويعمل على تفنيدها معرّفا الغلط أو السفسطة بأنّها قياس في الظاهر لا في الحقيقة. وليس في هذا كلّه إلاّ تمهيدا لنظرية القياس العامة كما تعرضها «التحليلات الأولى».

بتلك الصّورة ساهم السفسطائيون في إعداد منطق أرسطو ونظريته في القياس على وجه الخصوص. وإن أحدثوا في حياة الأثينيين الفكرية والعملية من المشاكل أكثر ممّا قدّموه لهم من الحلول، لا يجب أن يُستهان بالدّور الذي ساهموا به في مسار الفكر الإغريقي. إنّ السّفسطائية خطوة جديدة وهامة، «هي التي نقلت الفلسفة اليونانية من السطحية إلى العمق، ومن البساطة إلى التّعقيد، ومن محيط الدّائرة إلى مركزها. فالسفسطائية فلسفة إيجابية بنّاءة؛ إنّها ثورة على السّلبية وطريقة التّفكير الساذج

في عام 399 ق.م كان إعدام سقراط

*Socrate؛ حوكم وهو يبلغ من العمر واحد وسبعون عاما فيما يخبر أفلاطون، ليكون ميلاده في 470 ق.م. بأثينا. الرّجل الذي شطر اسمه مسار الفلسفة اليونانية إلى قسمين (ما قبل سقراط وما بعده)، كان ابنا لسوفْرَنيسْكُس نحّات الحجر، والقابلة فينارِت

*Phénarète. الفيلسوف الذي لم يكتب قط، تضاربت الرّوايات حول فكره وحياته، أشهرها ثلاثة لرجال عاصروه هم: أرسطوفان

*Aristophane، اكزينوفون

*Xénophon وأفلاطون Platon؛ ورابعة لفيلسوف لم يدركه، هو أرسطو.

لا نعرف سقراط إذن، لا مباشرة، بما أنّه لم يكتب، ولا عن طريق تقليد واحد*.

أقدم هؤلاء الرّجال الشّاعر أرسطوفان، يسخر من سقراط في مسرحية أَطلق عليها اسم «السُّحب»

les *Nuées* حيث «يصوّره فيها يقيس قفزات البراغيث، ويتمثّله جالسا في سلّة معلّقة في الهواء يناجي السّحب والغيوم، ويتوجّه إليها بالعبادة من دون آلهة المدينة، ويجد فيها ملاذه الأخير، ملاذ أصحاب الخيال؛ ويعزو إليه القول بأنّ الهواء مبدأ الأشياء، كما يتّهمه بالكفر وإفساد عقول الشباب»[9]. يبدو أرسطوفان في تمثيلياته أنّه كان من خصوم سقراط، الأمر الذي جعل بعض المؤرخين لا يعتبرونه مصدرا صحيحا. أمّا اكزينوفون، مهما عمل على تبرئة سقراط من الاتهامات الموجّهة إليه، لا يمكن الثقة في«المذكّرات»*Mémorables* les التي جمعها لسقراط، لأنّها كتابات سطحية، لا ترتقي إلى مستوى الفكر السقراطي، فضلا على أن اكزينوفون يكون قد غادر أثينا-فيما يروي المؤرخون- قبل ثلاثة سنوات من إعدام سقراط. أمّا أفلاطون، مصدرنا الثالث لمعرفتنا بسقراط، يضعنا أمام مشكلة كبرى هي المحاورات التي أجراها على لسان أستاذه: فإذا كنّا نعرف سقراط عن طريق محاورات أفلاطون، وكان فكر هذا الأخير متضمَّنا في المحاورات ذاتها، فهي آراء من في النهاية؟ إن كانت آراء سقراط فعلا، ماذا يبقى لأفلاطون؟ وإن كانت آراء أفلاطون في الحقيقة، أين هي شخصية سقراط، وماذا يُعزى له؟ هنا يأتي أرسطو المصدر الرّابع في معرفتنا بسقراط، محاولا تخفيف المعضلة، ذلك أنّ كلّما اتّفقت روايته مع رواية أفلاطون، ثمّ انضّمت إليهما آراء أخرى، كان ذلك أدعى إلى الارتياح.

تورد معظم المصادر أنّ سقراط بدأ مشوار حياته نحّاتا اقتداء بمهنة والده، لكنّ سرعان ما استلهمه التأمّل الفكري واشتدّ به في سنّ مبكّرة تحت تأثير الأوساط العلمية. غير أنّه كان يرى الحكمة بأنّها كمال الفكر بكمال العمل، أي أنّ العقل لا يُغَذّى إلاّ بتهذيب النّفس وعفّتها. فمن النّاحية النّظرية استفاد من مناهج السفسطائية فانتهى إلى إبداع منهج خاص به، وبحث في الرّياضيات والفلسفات الطّبيعية، لكن ما لبث أن أعرض عنها بسبب بعدها عن الحياة العملية، وما وجد فيها من تعارض للآراء *، وانتهى إلى أنّ العلم إنّما هو العلم بالنّفس، فاتّخذ شعارا له عبارة يُروى أنّه قرأها في معبد دلف Delphe هي «أعرف نفسك «.

ولمّا بدأ يحصل له التقدّم نحو هذا الغرض، خرج على الأثينيين يخاطبهم في القضايا الأخلاقية والسّياسية التي روّج لها السفسطائيون، فالتف حوله الشباب معجبين بأسلوبه البسيط وكلامه البليغ، وتمكّنه القويّ من الجدل. إنّ أوّل مهمّة ألقاها سقراط على عاتقه إصلاح ما أفسدته الحركة السفسطائية، كما لو أنّ ذلك «الهجوم السفسطائي قد أيقظ الذّهن اليوناني لكي يعود ويتناول معارفه جميعا بالنّقد والتمحيص، ويعيد بناءها على أساس منطقي سليم؛ وهذا هو الدّور الذي كان على شخص كسقراط أن يلعبه إذا كان لابدّ من أن يُحدث تطوّرا فكريا، كذلك الذي ظهر بالفعل عند أفلاطون وأرسطو» . لقد حاور الشعراء والكتاب والفنّانين ورجال السياسة، ظاناً أنّه أجهلهم بالحقائق، فانتهى إلى أنّ جهله بها أفضل من جهلهم الذي تحمله معرفتهم.

فلسفة سقراط وليدة منهجه: هذا أهمّ ما يميزه عن غيره من الفلاسفة؛ كان حواره استبطانيا يقوم على التهكّم ironie

*وتوليد الأفكار

maïeutique*، لأنّ سقراط كان يعتقد أنّ الإنسان مع عدم علمه، توجد في نفسه حقائق كامنة يستطيع إدراكها. ويتمثل التهكّم عنده في التظاهر بالجهل والتسليم برأي المخاطَب وإلهامه بأنّه يرغب في التعلّم منه، ثم يلقي بعد ذلك أسئلة عليه معرضا الشّكوك؛ بعدها ينتقل من أحكامه إلى أحكام لازمة عنها، لكنّ المخاطَب يرفض التسليم بها، فيقع في التناقض ويقرّ بجهله. كان غرض سقراط من هذا تحرير العقول من التقاليد الزائفة التي بثّها فيها التعليم السفسطائي

، كخطوة إعدادية لاستيعاب المعارف الصّحيحة. ثم ينتقل بعد ذلك إلى العملية الثانية وهي التوليد: إنّها خطّة تسمح للمُحاوَر أن يستخرج الحقائق بنفسه؛ وهي تقوم على إلقاء الأسئلة في ترتيب منطقي يجعل المستمع يصل إلى حقائق أقرّ في البداية أنّه يجهلها، فيدركها وهو يظنّ أنّه اكتشفها بنفسه. وهذا النهج المثري لم يحتكم لسقراط إلاّ من خلال الحرص على تحديد المعاني التي تحتويها العبارات، على خلاف مدّعي المعرفة الذّين اجتنبوا هذا التّحديد كي يسهل عليهم التمويه والمغالطة؛ فالمنهج السقراطي خصب، على خلاف الجدل السفسطائي الذي لا يشبهه إلاّ ظاهريا؛ إنّ الحوار السفسطائي لفظي بأكمله، فالمهزوم فيه لا يشعر بتهديد قناعاته، وإنّما يعنيه فقط التحكّم في الأدوات التي يردّ بها؛ لكنّ الحوار السقراطي يبعث الشكّ في قناعات الفرد ويدعوه إلى إعادة تأسيسها.

في هذا التّحديد بالذّات تقوم كلّ الفلسفة السقراطية: كان يؤكّد أنّ لكلّ موجود جوهر ثابت يختفي وراء المحسوسات، بإمكان العقل أن يدركه مستعينا بالاستقراء الذي يتدرّج به من المظاهر الجزئية إلى الماهية المشتركة بينها. وهذا يعني أنّ العقل هو سبيلنا في إدراك الحقائق، وليس الحواس كما زعم السفسطائيون؛ فعندما قالوا أنّ الإنسان مقياس كلّ شيء، لم يقصدوا بكلمة «إنسان» المعنى الكلّي والمطلق، وإنّما الفرد المعيّن المخصوص بظرف الزّمن والمكان، فبقوا بذلك في مستوى الجزئي ولم يرتقوا إلى مقام التصوّرات المطلقة والكلّية. إنّ الإحساس مختلف بين الأشخاص، بل لدى الفرد الواحد من حين إلى أخرى، أمّا العقل فمبادئه ثابتة وعامة لكلّ الناس؛ لذلك لا ينبغي من أجل معرفة حقيقة شيء ما أن نقف عند وجوده الجزئي المادّي والمتغيّر، بل «يجب أن نصل إلى معرفة وجوده العقلي الثابت، أي إلى ماهيته في ذاتها، أو إلى حدّه الكلّي؛ ذلك أنّ العقل ينتزع من أوصاف الجزئيات وعوارضها المحسوسة-بالاستقراء والتّحليل والمقابلة والديالكتيك- الاعتبارات أو المعاني الثابتة فيها» . وبما أنّ الاعتبار المجرّد والكلّي جامع للصّفات الثابتة في الجنس أو النّوع أو الفرد، أمكن أن نعتبره تعريفا لها وتعبيرا عن حقيقتها. هكذا يكون سقراط مؤسّس نظرية المعاني التي تأثر بها أرسطو فأخصّها بمبحث الكلّيات في منطقه، كما أنّها تشكّل المادة المفهومية للقياس الحملي عنده ، فكان (سقراط) بحكم ذلك واضع العلم الحقيقي.

ليس هذا كلّ ما جاء به سقراط؛ وإذا لم يصل بمشروعه العلمي إلى المقام الذي بلغه أرسطو، فلابدّ أن يكون مردّ ذلك اهتمامه بالإنسان، بأخلاقه، أَوْلى المسائل بالدّراسة فيما كان يعتقد. لم يكن سقراط أوّل مفكّر إغريقي نظر في الأخلاق، فقد ملئت الحِكمُ الأساطيرَ اليونانية وقصائد الشعراءِ وفلسفاتِ رجالٍ سبقوه، لكنّها دون مرتبة الفكر الأخلاقي الناضج الذي بدأ على يده؛ كان فعلا أوّل رجل في تاريخ الفلسفة بحث في أخلاق العقل، لأنّ الحكم الأخلاقي عنده ليس خاضعا للذّة أو المنفعة ولا يصدر كيفما

اتّفق، بل يتمّ وفق نظام عقلي ثابت متماسك الحلقات. هكذا تبدو فلسفة سقراط الأخلاقية متطابقة مع نظريته في المعرفة، وهذا يعكس ردّ فعله ضد السفسطائيين الذين وضعوا العقل والأخلاق على السّواء.

على النقيض من نزعة السفسطائيين النّسبية، إذن، توصل سقراط إلى إمكانية المعرفة المطلقة والأخلاق المطلقة انطلاقا من قوله بالحدّ أو المعنى الكلّي، شاقّا الطّريق أمام المثالية الموضوعية التي ستظهر مع أفلاطون، فميّز بذلك بين المنطق والسّفسطة: لقد أبطل الدّعوى السفسطائية حول عدم إمكانية وقوع الإنسان في التناقض عند قوله بأنّ موضوع المعرفة يحمل صفات جوهرية ثابتة، فكشف عن مبدأ الهوّية الذي على أساسه يقوم فعل العقل الأوّل وهو التصوّر. ولمّا كان هذا التصوّر أو الحدّ عند سقراط كلّيا، يكون قد أوحى بفكرة الكلّيات الخمسة مادة التّعريف المنطقية والمقولات التي صنّفها أرسطو، وبالتالي أعطى للحكم (القضيّة) شكله المنطقي الذي نفاه عنه السفسطائيون كما بيّنا، وهو إضافة أو حمل صفة على موضوع. ولمّا كان التّعريف كلّيا وثابتا*مقولا على موجودات أخصّ منه تشترك في صّفاته الجوهرية، أمكن استنباط تصوّر من تصوّر آخر، وحكم من حكم آخر *، وبالتالي أمكن القياس، على خلاف ما ادّعى السفسطائيون.

بتلك الصورة كانت مساهمة سقراط في إعداد العلم اليوناني و»أرغانونه»، وذلك باعتراف من أرسطو؛ ففي بداية عرضه لنظرية المثل الأفلاطونية يشير قائلا: «إنّ سقراط الذّي كانت اهتماماته متّجهة نحو المسائل الأخلاقية، وليس إلى الطّبيعة في مجملها، كان على الرّغم من ذلك، قد طلب في هذا المجال الكلّي، وأوّل من ثبّت التفكير حول التّعريفات»[12].

وفيما يتعلّق بتهيئة نظرية القياس الأرسطية على وجه الخصوص، يمكن القول أنّ سقراط مارس الاستدلال القياسي في محاوراته التي كان يحرص فيها على التتابع المحكم للأسئلة، على منوال ما نجده في قضايا القياس من تسلسل، الأمر الذي كان يسهل عليه إفحام مخاطبيه، ممّا يسمح بالقول أنّ سقراط مدّ القياس بتقنية التّفكير الاستنتاجي، وطبّق بشكل ضمني قواعده العامة التي صاغها أرسطو صراحة كما سنرى لاحقا؛ ذلك لأنّ المتكلّم يغلَط أو يُغالِط على حدّ سواء، عند عدم الالتزام بتلك القواعد؛ أمّا الدّور الرّئيسي الذي قام به سقراط في تطوّر فكرة القياس، يتمثّل في كونه هيّأ بواسطة الاستقراء المقدّمات الكلّية* للاستنتاج القياسي؛ مثال ذلك أنّ سقراط في «المذكّرات» «les *mémorables*» التي تركها اكزينوفون، قد أورد هذا «الاستدلال: يفضل النّاس دائما أن يلتجئوا إلى هؤلاء الذين يقدَّرون أنّهم أعظم كفاءة؛ فعند المرض يتّجه المرء إلى من يظنّ أنه أحسن طبيب، ومن أجل السّفر بحرا يفضّل أمهر الملاّحين، ومن أجل الزّراعة أفضل المتخصّصين؛ من هنا نحصل بالاستقراء على قضية عامة نطبّقها بعد ذلك بالاستنباط على حالة خاصة جديدة؛ وينتج عن ذلك أنّ كل استدلال في جملته إمّا يمضي عن طريق التماثل» . بالاستقراء إذن، بلغ سقراط الحدّ الكلّي، و بالحدّ الكلّي ركّب أرسطو القياس.

إنّ سقراط بطرحه لمسألة الحقيقة المطلقة والرّوابط العقلية العامة، أثار أكثر القضايا الفلسفية تعقيدا في عصره متوجّها بالفلسفة وجهة جديدة، في مرحلة بلغ فيها الفكر الفلسفي قمّة التّأرجح بين الطّبيعة والإنسان؛ وسيكون ذلك الاكتشاف الأساس الذي تنطلق منه نظرية المثل الأفلاطونية، ومادة يتغذى منها منطق أرسطو ونظريته في القياس.